

سابقة الفلسفة المطلوب منه التوجيه (٣) :

(١) غاية الأخلاق عند أرسطو

للأستاذ كمال دسوقي

—•••••—

لنشرع الآن ... على ضوء ما قدمنا - في تحليل الكتاب الأول من الأخلاق النية وماجية المطلوب اليكم دراسته تحليلاً مفصلاً . وفيه يتناول أرسطو بالحديث غاية الحياة على النحو الذى قلت في المقال السابق إنه يبدأ به بحثه في كل علم وفن أعنى غرض يختلف الآراء والنظريات ومناقشتها وتقديرها قبل الشروع في الادلاء بنظرته هو التى تجمدتها - ويجب أن نطلعوا عليها ... في الكتاب العاشر (الأخير) من الأخلاق النية وماجية في المجلد الثانى .

وإنما بدأ بدراسة الغاية but أو end لأن كل شئ في الحياة من علم أو عمل فاعماله غاية يرمى إليها ، ويتحدد هذه الغاية محدداً واضحاً منذ البدء يتضح السبيل أو الوسيلة moyen means إليها . بل إن الغاية نفسها هى التى كثيراً ماتمىن الوسيلة المؤدية إليها ، كالصحة في الطب ، والانتصار في الحرب ، والثروة في الاقتصاد . وقد تبرر الغاية الوسيلة كما في بعض المذاهب الأخلاقية المتطرفة مما يعبر عنه مبدأ مكيا فيلى المعروف : الغاية تبرر الوسيلة أى تشفع لها وتستبيح في سبيل تحقيقها أية وسيلة مشروعة كانت أو غير مشروعة . فالغاية وإن كنا نصل إليها آخر الأمر - وقد لا نستطيع الوصول إليها لعدم توفر أسبابها ووسائلها ... إنما نحدد يادى الأمور من هنا ومن وجود علم (أو علوم) وفن (أو فنون) تختص بدراسة كل غاية من هذه القضايا ، وتنتهى من تعرف طبيعتها إلى وصف الطريق المؤدية إليها .

وما أكثر ما تعدد الغايات ونتمدد - على خلاف بينها في درجة التعميد . فن الوسائل ما تعمل في طيها قيمتها بحيث تصبح هى الغاية . بمعنى أن تكون مقصودة لذاتها (فقرة ٢ سطر ٢) كمن يتلقى العلم لثبات العلم ، أو يزاول نوعاً من الفنون كالرسم أو التصوير أو الشعر حباً في الفن ، من غير أن تكون له غاية أخرى

من حب في الشهرة أو الثروة أو نحوهما . وأحياناً ما يكون العمل وسيلة لغاية مرسومة ، كما في أغلب أعمالنا الانسانية التى هى في معظمها وصولية نفعية *utilitaires* حتى لينكر المعاصرون وجود العلم للعلم ، وحب الفن للفن ، إيماناً منهم بأن كل شئ لا بد له من غاية تستر وراءه وتكن فيه . والأمر أشد عسراً حين ندرك أن من هذه الغايات ذاتها ما يكون وسيلة لغاية أخرى ، فلا يقصد لذاته ، وقد يكون لهذه الغاية الثانية غاية أبعد وهكذا . ويرد أرسطو هنا ما سبق أن قال به في برهان وجود الله (الملة الأولى) من أن هذا التسلسل في الغايات ... كما كان في الملية ... لا يمكن أن يكون إلى غير نهاية بل لا بد أن يقف عند حد يكون هو الملة الأولى *la cause finale* أو ملة المال التى ليس وراءها ملة ، والخير الأسمى *le bon suprême* الذى ليس بعده خير ، والذي هو موضوع جميع الآمال على اختلاف مذاهبها إليه .

فمن الغايات إذن ما هو جزئى وما هو كلى ، كما أن من العلوم التى تدرس هذه الغايات ما هو جزئى وما هو كلى . وإذا كان الخير غاية العلوم العملية على النحو الذى بينت في تقسيم العلوم عند أرسطو في المقال السابق ، فيكون من الخير إذن ما هو جزئى وما هو كلى . الجزئى هو الأخص الذى يتعلق بالفروع - والبكلى هو الأسمى الذى يتماثل بالاصل . وهو عند أرسطو علم السياسة *Politics* الذى يتعلق بتدبير أمر الدولة أو المدينة (واسمها في اليونانية *Polis*) وإذا تذكرتم الملحوظة الثالثة التى ذكرت لكم في التعليل على لوحة العلوم الارسطية في المقال السابق الخاصة بتدرج العلوم العملية في أهميتها نحو الكثرة ، سهل عليكم أن تدفوا بيطلان اعتراض المترجم الفرنسى (الفقرة التاسعة ص ١٧١ هـ) على أرسطو في جعل علم السياسة قمة العلوم العملية . فلما كان الفرد وحدة المجتمع ، والغاية الأولى في تكوينه ، وكان البحث في خيره وسعادته يجب ألا يتعارض مع بحث خير الدولة وسعادتها ، فقد رأى أرسطو بحق أن يخضع الأخلاق (علم تدبير الفرد) والتدبير المنزلى (تدبير الأسرة) لعم السياسة (تدبير الدولة) حتى يكون للمجموع المهيمنة على الفرد فلا يبدعه بنشد سعادته ولقدته أيتها شاء ومهما تعارض مع سعادة الآخرين ، وفي ذلك التوضيح والاضطراب خصوصاً ولن ما يراه هذا العلم خيراً على الجماعة فانه يفرضه على كل

من المعلومات إلى الملة ، والمسببات إلى السبب . وهذا هو منهج الاستقراء Induction الذى لأنزال تأخذ به حتى اليوم بوصفه أصح منهج لدراسة الاخلاق

وعلى أساس هذا المنهج القويم يصنف أرسطو السمادة عند الناس من حيث هي الحياة المنيشة إلى حياة اللذة، فالمجد والشهرة، وأخيراً حياة الحكمة والتأمل : الاولى هي حظ الدماء والعامية وإن شاركهم فيها بعض ذوى السلطان المترفين الناعمين - وهي على أى أحوالها تجعل من أتعابها بها ثم أولى منهم أناسي . والثانية (حياة المجد والشرف) أرفع شيئاً ، ولكنها توهب ولا تؤخذ ، بمعنى أنها ملك لواهبها لا لاطالبها - إن شاء أعطى وإن شاء سلب - هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ينبغي ألا نطلبها لما يدل عليه السمي إليها من تهافت وضمة ورغبة في التكل بما ليس فينا ؛ أو على الأقل التثبت والاستيقان من وجوده فينا - وكلاهما شر أقل ما يدل عليه أن ما نريد أن ننسبه لأنفسنا - أو ينسبه لنا الناس - (وهو الفضيلة) هو أولى بالسمي والاكتساب . والفضيلة ذاتها لا تصلح وحدها غرضاً للحياة وإلا كانت مملة - بل شراً أحياناً (ويتناولها أرسطو في الكتاب الثانى) . أما الحياة الثالثة غفابة الفكر والتأمل (وهي موضوع السكتاب الأخير من الأخلاق الأرسطية) وبما لهما أرسطو بعد أن يكون قد فرغ من تحديد الفضائل والإرادة الخلاقية - لأنها أساسها . هذا عدا حياة الثروة ، والثراء لا يمكن أن يكون غاية ؛ بل هو وسيلة تقصد لغيرها لا لذاتها - كما سيتضح أن اللذة هي عمل الحواس والأعضاء ؛ ولا تُراد لذاتها .

ويعود أرسطو إلى تناول الخير بمقتضى الامام الدقيق في الفصل الثالث ، فلا يجد حرجاً في أن يتعارض مع أستاذه أفلاطون في هذا الصدد مادام يسمى للوصول إلى الحقيقة . بل هو يأخذ على نظرية المثل الأفلاطونية هنا مأخذ كثيرة ترى في جعلها إلى إبطال نظرية الخير الكلى أو مثال الخير الأفلاطونى يمكن تلخيصها فيما يلى :

(١) من الأمور التى تتميز فيها سلحة من سابق ولاحق - كالأعداد - لم يستطع أصحاب المثل أنفسهم أن يقولوا بمثل لها ، لأنها تستمر إلى ما لا نهاية - وأرسطو هنا يشيد بالفيثاغوريين .

(٢) ومثل هذا يقال في ما يسميه أرسطو القولات Catégories

أفراد هذه الجماعة باسم القانون أو المرف أو التقاليد التى يستحق من يحميها عنها جزاء من جنس عمله . ومتى كان القانون الخلاقى بكفى وحده لضبط سلوك الأفراد ... وليس للضمير سلطان على الكثير منهم - إلا أن يظهره القانون الوضعى (أو المدنى) ، والقانون السماوى (أو الدين) ؟ إن الفرد في نظر أرسطو حيوان اجتماعى لا وجود له منفزلاً . وهي وجهة نظر الاجتماعيين وبعض علماء النفس المحدثين .

وإد واضح أن الخير الخقيق الأسمى لدرسان هو موضوع الأخلاق التى هي فرع من علم سياسة الدولة ، فإن أرسطو يريد أن يدرس هذا الخير من وجهة نظر عامة لاق أمثلة فردية ربما كانت نتائجها شاذة - والشاذ لا يحكم له ولا يقاس عليه (فقرات ١٤ إلى ١٦) خصوصاً وأن الحكم على الأشياء الجزئية يتطلب معرفة خاصة بها كما أن الحكم بطريقة عامة كلية يتطلب خبرة أوسع ونجربة أشمل ، ومن هنا جاءت عدم صلاحية الشباب --- شباب السن الأحداث وشباب العقل الذين بانباغهم الهوى يعطلون ملكة العقل فتصدأ ونطيش ولا تصلح للتفكير السليم - نقول عدم صلاحيتهم لتماطى هذا العلم والبحث فيه . فليست غاية الأخلاق مجرد العلم بالخير ، بل رياضته ومزاولته عملياً وقبل كل شيء (ن ١٨ - ٢٠)

وفي الفصل الثانى يناقش أرسطو فكرة الخير من حيث ما ينظر الناس إليها . هم مجمعون على أن الخير الأسمى هو السمادة ، والسمادة يريدون بها رغد الميش وحسن الفعل . ولما كان هذا التعريف عاماً وغير محدد ، فإنه يتسع لكثير من التفسيرات التى تفرع على طبيمة السمادة ذاتها ، وفي هذه التفريعات تختلف وجهات النظر ويتباعد الناس . ولما كانت الآراء هنا من الكثرة والنسبية (التى بالنسبة للفقير ، والصحة للرييض) بحيث لا تحصر فإن أرسطو يقتصر على ذكر أكثرها شيوعاً وأدناها إلى الصحة . وهنا يشير أرسطو مسألة المنهج الذى سيسير عليه في استقراء أنواع السمادة هذه . فيحمد لأفلاطون تفكيره في البدء من الاشياء الجزئية الى المثل الكلية أو العكس مرجحاً وطريقة الانتقال من الحالات الجزئية إلى قانونها العام ، ومن الاشياء الشائعة الموجودة في الواقع بوضوح الى ما عسى أن يكون لها من علة . ويعق آخر

بل يعود إلى صدد المثال الواحد المجرد للغير فيقول إنه لو صح وجوده قائماً بذاته لما أمكن إحرازه أو تعاطيه ويمتنع بذلك السمي أو البحث عنه .

وأرسطو حتى نهاية هذا الفصل يؤكد وجوب البحث عن الخير الجزئي لا الكلي ؛ النسبي الذي له علاقة بشيء لا المطلق القائم برأسه في علياء المثل ؛ الخير المحسوس في الأشياء والأفعال والعلوم الواقعية لا المجرد المقول الذي لا سبيل إلى إدراكه أو تحصيله . وهذا كله اعتراضاً على نظرية الخير الكلي كما تريد المثل الأفلاطونية أن تكون - أوردناها لك بتفصيل وتوسع - ولك أن تقبل منها ما تؤيده الحجة الناصعة والدليل القاطع - فليست كلها من الوجهة والإنصاف بحيث تؤخذ مسلماً بها - ولكنها على أي حال جزء من النقد العام لأرسطو على نظرية المثل الأفلاطونية ، وعليك أن تكمل هذا النقد في ميدان المثل الأخلاقية بقدر المثل الطبيعية في مطلع كتابي الطبيعة وما وراء الطبيعة لأرسطو - مما نجد شرحاً وافياً له في المراجع العربية التي زودتك بها في المقال الأول - فارجع إليها وادرسها - فإن نقد المثل الأفلاطونية يمدّ حجر الأساس في كل علم من العلوم الفلسفية التي تناوّلها أرسطو

كمال رسوفي

أحمد حسن الزيات

يقدم

تاريخ الأدب العربي

يؤرخ الأدب العربي من عصر الجاهلية إلى هذا العصر بأسلوب قوى ، ومستقيم موجز وتحليل مفصل ، واختيار موفق ومقارنة بين الأدب العربي والآداب الأخرى .

طبع عشر مرات في ٥٢٥ صفحة

وعنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد

وهي عشرة : جوهر وتسعة أعراض ؛ الجوهر Substance سابق على الأعراض لأنه الموضوع ، وهي محمولة عليه كما يقال في المنطق وبأدام الجوهر سابقاً على أعراضه التسعة (الكم والكيف . والزمان والمكان ، والإضافة والملك والوضع ، والفعل والانفعال) فنحن بإزاء خيرات كثيرة بمقدار ما يكون للجوهر الواحد من صور وأعراض ، وهذه الخيرات منها ما هو سابق وما هو لاحق ولا يمكن أن يوجد بينها خير مشترك .

(٣) ولو كانت نظرية المثل الكلية صحيحة فيما يتعلق بالخير ، لوجب أن يوجد علم واحد يختص بدراسة الخيرات كلها من حيث هي تندرج تحت خير كلي ، والواقع لا يؤدي ذلك ، بل يقوم لكل خير جزئي علم خاص به (ف ٤) .

(٤) وقول أفلاطون بالمثل يجعلنا بإزاء ثلاثة أشياء بدلاً من اثنين - كما في الإنسان ، فهناك الإنسان الجزئي المسمى زيد أو عمرو - بلبه الصفات المشتركة بين عامة الناس - أي الحد الكلي والماهية في الذهن - فتعال الإنسان الكامل أو الصورة التالية المفارقة التي تنزع إلى محاسنها ولا تبلغ إليها الكائنات الإنسانية الموجودة في عالم المثل .

(٥) وفي هذه الحالة أن يكون الخير الكلي - أي الخير في ذاته أو مثال الخير - أكثر خيراً من الجزئي - إذ الفرق بين المثال الكلي والشئ الجزئي المشارك فيه هو أبدية المثال وأزليته - أي أنه لا أول له ولا آخر زمانياً - وليس من شأن التقدم في الزمان أو الخلود فيه أن يجعل للشئ زيادة في كم الصفه أو كيفها (ف ٦)

(٦) وحتى لو قيل إننا لا نقصد أن يكون لكل نوع من الخيرات مثاله ؛ بل إن نوعاً معيناً منها هو المثالي أو الحقيقي الذي تشارك فيه بقية مثل الخيرات ، وبمشاركة الأشياء فيه نكتسب صفة الخير ، فيكون لدينا حينئذ على الأقل نوعان من الخيرات : خيرات بذاتها وأخرى بغيرها ، ويتمتع علينا بالتالي أن نغير أيها الخير الحقيقي : الخير المثالي المجرد في عالم المثل أم الخير الواقعي في الأشياء والأفعال . فإذا أثبتنا الخير للمثال وحده دون الأشياء المشاركة فيه فما فائدته إذن ؟ (ف ١٠) وإذا أثبتناه للأشياء المتعددة فلم أن تكون مشتركة في حد واحد هو الخير . ولكننا نرى تعدد الخيرات بحيث لا يجمعها مثال واحد ، فمن أين إذن اتفق لها الاسم على اختلافها ؟ أبا الشبه ؟ أم المصادفة ؟ أم وحدة المصدر ؟ أم النافية ؟ هنا يهرب أرسطو ويقطع الجدل دون أن يتم (ف ١٣)